شخصية العربي التبسي
قراءة في التنشئة والمسار
(1891-1957م)

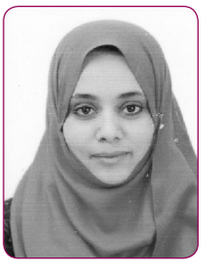

بقلم: د. دويدة نفيسة
(المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة)

تمهيد :

يبحث هذا المقال مسار حياة احدى الشخصيات الجزائرية المجاهدة والثائرة والمصلحة في آن واحد، هي شخصية الشيخ العربي التبسي: مجاهد القلم، وشهيد السلاح. ونحاول من خلال تتبع هذا المسار الحافل ان نتلمس واقع الجزائر المستعمرة، وتفاعلاتها الاجتماعية والثقافية وسط محيط متحول ينحو بطيئاً باتجاهات عدة. واذا كان الفرد لا يمثل سوى نفسه في هذا التحول؛ فإننا امام نموذج ايجابي يجذب اليه فئات المجتمع، ويحيطها باهتمامه على مدار يقارب الستين سنة هو الكوكب التبسي.

◄المولد والنشأة:

هو التبسي الجزائري الزيتوني الازهري السلفي المصلح الثائر الشهيد، الملقب نفسه بالكوكب التبسي، وصاحب الامضاء. وهو العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات الجدري الملقب التبسي اصوله الاسرية تنتمي إلى قبيلة النامشة العريقة ولد (حسب شهادة الميلاد المستخرجة له بتاريخ 20/10/1927م والمسجلة تحت رقم 239/1927م) في الفاتح جويلية 1891م[1] بقرية اسطح الواقعة جنوب غرب مدينة تبسة، من عائلة فلاحية فقيرة لكنها متدينة، فأبوه وجده من حفاظ كتاب الله ومدرسيه، عالمين بالدين واللغة العربية.

حفظ العربي القرآن الكريم على يد والده (ت 1320هـ/1903م)، والتحق سنة (1324هـ/1907م) بزاوية سيدي ناجي بالاوراس[2] ومنها انتقل بتوصية من شيوخه فيها إلى زاوية مصطفى بن عزوز بنفطة سنة (1327هـ/ 1910م) والتي كانت ذائعة الصيت؛ خاصة أن خريجيها كان بإمكانهم الالتحاق مباشرة بالزيتونة وبغيره وهو ما حدث للعربي؛ فبعدما اتم تكوينه بالزاوية في مختلف العلوم من فقه ومنطق واصول، وفنون اللغة العربية، والادب، وعلم الكلام..[3]

التحق بعدها بالزيتونة سنة (1331هـ/ 1914م)، ونال شهادة الاهلية بعد بضع سنوات من الاجتهاد والمثابرة والتحصيل، ورحل إلى القاهرة في حدود سنة (1339هـ/ 1920م)، حيث انضم لطلبة الازهر الشريف، وحصل على شهادة العالمية، واستغل فرصة وجوده بمصر ليحضر حلقات العلم، ويزور المكتبات، وذلك إلى غاية سنة 1347هـ/ 1927م حيث عاد فيها إلى تونس للحصول على شهادة التطويع المؤهلة لمباشرة مهنة التدريس[4].

◄ عودته للجزائر ونشاطه بها:

قضى العربي التبسي حوالي سبعة عسر (17) سنة خارج الجزائر، وهبها لتحصيل العلم وتوسيع المدارك والتفقه في مختلف الفنون والعلوم لاسيما الشرعية منها، وكأنه ابتغى بناء قاعدة فكرية وروحية في نفسه؛ أولا من اجل مهمة شاقة ونبيلة يحققها لوطنه لاحقا. وهو ما حدث فعلا بعودته للجزائر سنة 1347هـ/ 1927م، حيث شرع في الوعظ والتدريس للكبار والصغار في مسجد صغير (ابن سعيد) بمسقط رأسه، ولما ضاق بالناس انتقل الى مسجد المدينة (العتيق) الذي تشرف عليه الادارة الاستعمارية؛ فضايقته واوقفته فعاد ثانية إلى المسجد الأول.

واشتملت دروسه تلك على مختلف علوم الفقه والسيرة والتاريخ الاسلامي....الخ، وجمع بين الحديث في امور الدين والدنيا، لكنه سرعان ما تعرض مرة اخرى للمضايقة من قبل اعداء الدعوة الاصلاحية من طرقيين، واعوان للإدارة الاستعمارية؛ خاصة لما كثر عدد المواظبين على حضور دروسه، والمتأثرين بأفكاره.

ولما ضاق به الحال عمل بنصيحة الشيخ ابن باديس له، وانتقل إلى مدينة سيق بالغرب الجزائري ابتداءً من سنة 1930م مديرا لا حدى مدارسها الابتدائية، ومدرسا بها، وكان له أكبر الاثر في بث روح الاصلاح في تلك الجهة من الوطن[5]. وكان قد انضم إلى مجموعة العلماء الرواد؛ في اطار مساعي تكوين جمعية دينية اصلاحية.

وقد لفت الشيخ التبسي الأنظار إلى نشاطه الحثيث قبل وبعد ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كان له دور ومساعي في تأسيسها وكان نائبا لكاتبها العام وقد طلب اليه أهل تبسة بالرجوع إليهم فعاد سنة 1933م، وشرع في التحضير لافتتاح مدرسة «التهذيب» للبنين والبنات في السنة الموالية (1934م)[6].

ولم يلبث الشيخ التبسي أن اختير لتقلد منصب الكاتب العام للجمعية خلفا للشيخ الامين العمودي وذلك سنة 1935م، وتولى أيضًا رئاسة لجنة الافتاء نظرًا لزاده الفقهي والعلمي، واستمر على ذلك إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وبعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1940م انتخب الشيخ التبسي نائبًا للشيخ البشير الابراهيمي، وكانت له مساعي كبيرة باسم الجمعية داخل ائتلاف حركة احباب البيان والحرية (AML)؛ مما عرضه للسجن بتهمة التآمر مع الالمان ضد الدولة الفرنسية، وسجن لمدة ستة اشهر، وتكرر اتهامه بالتحريض على التمرد في ماي 1945م فاعتقل، ولم يفرج عنه الا مع صدور قانون العفو العام سنة 1946م[7].

عاد الشيخ بعد اطلاق سراحه إلى التدريس بالجامع الاخضر بقسنطينة، كما انه تولى الاشراف على جمعية التربية والتعليم التابعة للجمعية، والتي تم نقل مقرها مؤقتا إلى تبسة، وبعد افتتاح معهد الشيخ ابن باديس سنة 1947م عين التبسي مديرا له، ومما قال في الكلمة الافتتاحية ما يلي:

« أيها الإخوان إن التعليم بوطنكم هذا في أمتكم هذه ميدان تضحية وجهاد، لا مسرح راحة ونعيم فلنكن جنود العلم في هذه السنة الأولى، ولنسكن في المعهد كأبنائنا، ولنعش عيشهم، عيش الاغتراب عن الأهل فانسوا الأهل والعشيرة، ولا تزوروهم إلا لماما، أنا أضيقكم ذرعا بالعيال وعدم وجود الكافي ومع ذلك فها أنا فاعل فاعلوا وها أنا ذا بادئ

فاتبعوا»[8].

وقد اعترض أهل تبسة على ذلك إلى أن خاطبهم الشيخ الابراهيمي، وقال هذا الأخير عن ذلك: «ارضينا سكان تبسة الكرام الذين كانوا يعدون انتقال الاستاذ التبسي عنهم كبيرة يرتكبها من يتسبب فيها، وأقنعناهم بأن الشيخ العربي رجل أمة كاملة؛ لا بلدة واحدة، ورجل الأعمال العظيمة لا الأعمال الصغيرة فاقتنعوا، وأمنا لهم مشاريعهم العلمية والدينية بإيجاد من يخلف الأستاذ فيها فرضوا مخلصين...» (وبقي مديرا للمعهد حتى أغلاقه أواخر سنة 1956م من طرف الادارة الاستعمارية)[9].

ورغم انه قد جمع مسؤوليات عدة في آن واحد ابتداءً من سنة 1952م حين تولى رئاسة الجمعية نيابة عن الشيخ الإبراهيمي الذي كان في المشرق فانه استمر أيضا في متابعة شؤون التعليم بالعاصمة واشرف على جريدة «البصائر»، بالإضافة إلى ادارة المعهد الباديسي كما سبق، وذلك إلى غاية اختطافه[10].

◄موقفه من الثورة:

تجب الاشارة إلى استجابة الشيخ التبسي السريعة لنداء الثورة، وفي هذا الشأن تذكر المصادر حدوث اتصالات بينه وبين قادة الثورة لاسيما انه شخصيا دعا اليها منذ امد بعيد، وقد دعا إلى تلبية نداء الجهاد الذي رفعه الثوار المجاهدون وقد رصد التبسي احداث اول نوفمبر 1954م على لسان الجمعية في مقال «حوادث الليلة الليلاء» حيث كتب قائلا: «فوجئت البلاد الجزائرية بعدد عظيم من الحوادث المزعجة وقعت كلها ما بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة من صبيحة الاثنين غرة نوفمبر، وهو عيد ذكرى الاموات ولقد بلغ عدد تلك الحوادث ما يزيد عن الثلاثين ما بين الحدود التونسية وشرقي عمالة وهران، الا ان عمالة قسنطينة؛ وخاصة جهتها الجنوبية كانت صاحبة المقام الاول فيها، وكادت تتركز الحوادث في جهات جبال اوراس في خط يسير من باتنة إلى خنشلة ثم يشمل الجنوب.. اننا لحد هذه الساعة لا نملك التفاصيل المقنعة عن هذه الحوادث واسبابها وليس بين ايدينا الا ما تناقلته الصحف وشركات الاخبار؛ فلا نستطيع ان نعلق عليها ادنى تعليق إلى ان تتبين لنا طريق الصواب، فليس من شأن «البصائر» ان تتسرع في مثل هذه المواطن.. لكننا من جهة اخرى رأينا أنه لا يمكن ان يخلو هذا العدد من جريدتنا من ذكر هذه الحوادث التي تناقلت صحف العالم بأسره تفاصيلها، فقررنا الاكتفاء بذكر اهمها، ولسوف نتتبع ذلك بغاية الدقة والاهتمام..»[11].

وفعلا تابع الشيخ التبسي باهتمام مستجدات الساحة السياسية بالجزائر، وكتب في نهاية نوفمبر 1954م ما يلي: «...ما هذا أيها القوم؟، ان الساعة ساعة جد، وليست ساعة هزل، إنني لا أدافع عن مذياع القاهرة، ولا عن مذياع واشنطن؛ لكنني أقول وأؤكد أنه لا يوجد مذياع في الدنيا بلغت قوته ما بلغت أن يحدث حركة انتفاض في أي أمة من الأمم وفي أي بقعة من بقاع الأرض؛ فإذا ما أردت أن تعرف سبب وقوع الحوادث ففتش عن تلك الاسباب بكل دقة، وبكل حكمة، وبكل نزاهة فوق أديم الأض التي وقعت عليها، وبين ما تنطوي عليه جوانح أهلها من آلام الحرمان والبؤس»[12].

وكتب مقالا بعنوان «كتاب الادغال» نشر على صفحات «البصائر» بتاريخ 18 فيفري 1955م ما قال فيه: «...وتململوا وتحركوا، ودبت فيهم روح الحياة الحرة الجامحة التي تحطم كل معترض مهما كان قويا عاتيا، وتقدموا إلى الأمام يخوضون معركة

الحياة، وقد حملوا أرواحهم فوق أيديهم؛ فيزحفون إلى الأمام، ولا يتقهقرون أبدا إلى خلف، وقد علموا ان حياة لا عزة، ولا شرف، ولا علم فيها، ولا عمل ولا حكم فيها ولبنيها، ولا سلطان فيها لذويها، إنما هي حياة خسة ومذلة افضل منها الموت العزيز والفناء الشريف»[13].

◄ اغتياله:

لقد أثار نشاط الشيخ التبسي منذ عودته إلى الجزائر سخطًا عظيمًا لدى السلطات الاستعمارية التي رأت فيه شخصًا عنيدًا لا يلين في الدفاع عن قضيته، خاصة أنها لمست آثار دعوته الاصلاحية وفي إنارة الوعي الجزائري في كل المناطق التي زارها أو درَس بها؛ الأمر الذي جعل الشيخ محل متابعة ومضايقة وترصد، وما زاد الأمر تعقيدًا فشل محاولات الترغيب والوعيد التي قامت بها، فوجدت نفسها امام شخصيته الصلبة المؤيدة لرفع راية الجهاد، ودعم الثورة.

وهكذا لجأت الادارة الاستعمارية إلى تدبير حادث اختطافه مساء يوم الخميس 04 أفريل 1957م، ومن ثمة اغتياله بوحشية بعد أيام من التعذيب والتنكيل، وبقي قبره مجهولًا. وقد نقلت «البصائر» عن تفاصيل الحادث ما يلي: «في مساء يوم الخميس 04 رمضان 1376هـ الموافق 04 أفريل 1957م، وعلى الساعة الحادية عشر ليلا اقتحم جماعة من الجند الفرنسيين التابعين لفرق المظلات... سكنى فضيلة الأستاذ الجليل العربي التبسي؛ الرئيس الثاني لجمعية العلماء والمباشر لتسيير شؤونها، وأكبر الشخصيات الدينية الإسلامية بالجزائر؛ بعد أن حطموا نوافذ الأقسام المدرسية الموجودة تحت الشقة التي يسكن بها بحي بلكور طريق التوت...، وكانوا يرتدون اللباس العسكري الرسمي للجيش الفرنسي...، وقد وجدوا فضيلة الشيخ في فراش المرض الملازم له، وقد اشتد عليه منذ أوائل شهر مارس، فلم يراعوا حرمته الدينية، ولا سنه العالية، ولا مرضه الشديد، وازعجوه من فراش المرض بكل وحشية وفظاظة، ثم أخذوا في التفتيش الدقيق للسكن...، ثم أخرجوه حاسر الرأس حافي القدمين... ولكن المفاجأة كانت تامة عندما سئل عنه في اليوم الموالي بعده في الادارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطية والعدلية؛ فتبرأت كل ادارة من وجوده عندها أو مسؤوليتها عن اعتقاله أو من العلم بمكانه»[14].

◄ آثاره:

تنوعت اثار الشيخ التبسي المكتوبة، وتناولت اجمالا محورين هامين في بناء الإنسان الجزائري المعاصر؛ هما: الجانب الفكري الخاص بتقويم الاخلاق والسلوكيات، وطلب العلم، وتصحيح العقيدة من الشوائب والبدع المستحدثة، والتفطن للمكائد المدبرة من طرف اعداء الدين والوطن. والجانب العملي تضمن كل ما يتعلق بالإخلاص في اداء الواجبات، وتحمل المسؤوليات، ومحاربة الآفات الاجتماعية، والسعي للتغيير الايجابي والاقتداء بالعلماء الصالحين، والاتقياء الزاهدين وغيرهم. ورغم ذلك فان الرصيد التراثي للشيخ التبسي لم يكن غزيرا؛ نظرا لالتزامه بالتدريس وانتهاجه اسلوب التلقين الشفهي.

وعلى العموم نجده كتب على صفحات مجلة «الشهاب» في الفترة ما بين سنتي 1926 و1933م وبلغت مقالاته بها 15. وكتب في جريدة «النجاح»، وفي «البصائر»[15].

وقيل أنه من أصدر جريدة «السنة النبوية» التي صدرت في الثلاثينات باسم الجمعية، والتي سرعان ما عطلت بسبب هجومها الشفوي على أهل الطرقية الضالين وأعوانهم[16].

◄ الملاحظات:

تجدر الاشارة إلى بعض الملامح الهامة في حياة ومسار الشيخ التبسي نذكر منها ما يلي:

1- انه تلقى العلوم الدينية من كل منابعها: من الكتاب بمسقط رأسه بتبسة. من الزوايا: سيدي ناجي، مصطفى بن عزوز بنفطة وربما من غيرها. من الجامع المعمور: الزيتونة بتونس. من الازهر الشريف بمصر.

2- كان التبسي اجتماعيا متواصلا ومتصالحا مع محيطه، من خلال اللقاءات والخطب والصحف مهتما ومنشغلا برصد مواطن الفساد في العقول والابدان، داعيا إلى تقويمها بالإصلاح حينا وبالثورة احيانا اخرى، ولم تعرف عنه عداوة لشخص ما.

3- اصر على البقاء داخل الجزائر حتى حين اشتداد الحصار عليه، ولم يطب له موطنا غير الجزائر، ولم يرتحل الا في سبيل طلب العلم، او في مهام ظرفية محددة.

4- قيل انه صاحب الفتوى الشهيرة التي نصت صراحة على ان المتجنس مرتد، وهي الفتوى الصادرة عن لجنة الافتاء التابعة للجمعية في جانفي 1938م (البصائر عدد 25، 14/01/1938م). بالإضافة لفتاوى اخرى كتحريم الزواج بالأجنبيات: «فمن يتزوج فرنسية يدخل الاستعمار بيته».

5- كان مفسرا، وقيل انه درس التفسير مدة اثنين وعشرين سنة.

6- هو من اجاز نشر كتاب «رسالة الشرك ومظاهره» للشيخ مبارك الميلي، وذلك سنة 1937م باسم المجلس الاداري للجمعية، وقال عن الكتاب: «ان ما اشتملت عليه رسالة الشرك ومظاهره.. هو عين السنة، وان هذه الرسالة تعد من الكتب المؤلفة في نشر وردع البدع، ولذلك قرر المجلس الاداري بالجماع احقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق المجلس مؤلفها على ما فيها، ويدعو المسلمين إلى دراستها، والعمل بها».

7- لم يكن سياسيا محترفا، لكنه اقتحم عالم السياسة وتمرس فيه، واستطاع الوصول (مع اخوانه الاخرين) بالجمعية إلى بر الامان خلال الثورة التحريرية.

8- لم يرد للجزائر ان تنفصل او تنعزل عن محيطها، وعما يدور فيه، فكان كثير النقد والتوجيه، ولم يسلم من قلمه حتى غير الجزائريين، ومن ذلك مثلا انتقاده لسياسة الاخوان المسلمين مع السلطة، واصطدامهم بها في كثير من الاحيان؛ بدل المهادنة والمحاورة.

9- وصف بأنه المجسد «للنزعة المحافظة البالية» وربما «المثالية في افكاره» على حد قول الباحث علي مراد، وبأنه «افتقر لحرية التحرك والهيبة الضروريتين لبلورة مذهب شخصي»، «وكان عليه بوجه خاص ان يتولى وظائف الداعية والمعيد المكرر للمذهب الكلاسيكي دون كلل».

10- من اقواله: في مخاطبة اعضاء الجمعية قال: «.. فلتكن الاخوة رائدنا، وليكن الاخلاص رابطنا، ولتكن النزاهة شعارنا، وليكن نكران الذات القاسم المشترك الاعظم بيننا، فلننس من

ماضي الاباء والاجداد كل ما يدعو إلى الفتور والى الموت، ولنأخذ من ماضيهم كل ما هو مدعاة قوة واتحاد». وقال في جنازة الشيخ ابن باديس: «لقد كان الاستاذ عبد الحميد الجزائر، فلتحاول الجزائر بعد اليوم ان تكون عبد الحميد».

◄ الهوامش:

1 - اختلفت المصادر بشأن تاريخ ميلاده؛ حيث ذكر محمد علي دبوز انه ولد سنة 1895م. انظر: اعلام الاصلاح في الجزار، ش و ط ن، الجزائر، ج1، ط1، ص 42. وهناك من ذكر انه ولد سنة 1888م، ومنهم الشقيق الاصغر للفقيد المدعو الحفصي، وفسر تأخر تسجيله بالرغبة في التخلص من التجنيد. انظر: احمد عيساوي: منارات من شهاب البصائر للشيخ العربي بن بلقاسم التبسي (1891 - 1957م)، د.ت، ص 87.

2 - ومن شيوخه بالزاوية الرحمانية نذكر الشيخين: سيدي حامد مدرس الفقه واللغة العربية، وسيدي سالم مدرس القراءات.

3 -وكان من شيوخه فيها: ابراهيم بن الحداد، محمد بن احمد النفزاوي، محمد بن ابراهيم وغيرهم.

4 - خلال تلك المدة بالزيتونة برز العربي كوجه طلابي نشيط؛ من خلال انتخابه كاتبا عاما لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين في الفترة ما بين سنتي 1914 و1919م. وكان من زملائه بالزيتونة: مبارك الميلي، ومحمد السعيد الزاهري السنوسي.. انظر ايضا: الطيب بن نادر: الشهيد العلامة الشيخ العربي التبسي ومن علماء منطقة ام البواقي، دار الهدى، الجزائر، 2008.

5 - بشير كاشه: امام المجاهدين الشيخ العربي التبسي، دار افاق، الجزائر، 2006، ص 12.

6 - انظر: مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، 2009، ط6، ص 262.

7 - انظر: كاشه، المرجع السابق، ص 12.

8 - نقلا عن: الرفاعي، المرجع السابق، ص 132.

10 - هذا إلى جانب استمراره في القاء الخطب المسجدية، والمواظبة على تنشيط حلقات العلم في المدارس والمعاهد.

11 - «حوادث الليلة الليلاء»، البصار، العدد 292، (05/ 11/ 1954م)، ص 1 وص2.

12 - «لنجابه الحقائق بالحكمة والعقل»، البصار، العدد، 293، (19/ 11/ 1954م)، ص1 وص4.

13 - البصائر، العدد 306، (18/02/ 1955م)، ص01.

14 - انظر عدد البصائر. ومن الاقوال الرائجة بشأن الجهة المدبرة لحادث اختطافه هي المنظمة الارهابية المعروفة باسم «اليد الحمراء La main rouge» بايعاز من الادارة الاستعمارية ربما.

15 - جمعت اثار الشيخ التبسي في: احمد الرفاعي الشرفي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الاسلامية في الجزار، دار الشهاب، باتنة، 1984م، ط1، ج1، ج2.

16 - انظر افتتاحية الشيخ التبسي مثلا في: العدد 02، 17/ 04/ 1933م.